- مقدّمة عن علم الإعجاز القرآنيّ:

- معنى المعجزة:

ترجع كلمة المعجزة في اللغة إلى (عَجِزَ) التي تعني مؤخر الشيء، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر۞ تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر ﴾(القمر/ ١٩، ٢٠)، إذ يقول الطبرسي في معنى الآية: (أعجاز نخل) أي أسافل نخل منقلع، وبما أنّه من عادة الانسان العاجز الضعيف أن يكون في آخر القافلة سمي (عاجز أو ضعيف)، ومن هنا فإنّ الضعف والعجز موجود في مفهوم (العجز)، رغم أنّ الضعف لا يعدّ جزءاً من المعنى الأصلي؛ ولذا فإنّ الاعجاز هو إيجاد العجز في الطرف المقابل.

أمّا في الاصطلاح، فهناك عدة تعريفات:

- قال الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ) الاعجاز يعني علم الناس ((أنّ الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين))(الرسالة الشافية: ١١٧).

- يقول نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢ هـ) في تعريف المعجزة: ((هو ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوة))(كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٢٥٥).

ويعتقد الشيخ الطوسي أنّه ليس هناك فرق بين الإثبات العملي ونفيه، بل المهم هو (خرق العادة) سواء كان بشكل اثباتي، كتبديل العصا الى حية، او بشكل سلبي كسلب القدرة عن الشيء مثلما حدث في قصة ذبح ابراهيم لولده اسماعيل، او صيرورة النار بردا وسلاما على ابراهيم.

- عرّف السيوطي (ت٩١١هـ) المعجزة كالتالي: ((أمر خارق العادة مقرون بالتحدّي، سالم عن المعارضة)).

- الخوئي قال في تعريفه المعجزة: ((أن يأتي المدّعي من المناصب الالهيّة بما يخرق نواميس الطبيعة، ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه)).

- شرائط المعجزة:

١- **إدّعاء النبوّة:** يعدّ فعلاً ما معجزة اذا ما قام بها الشخص لاثبات الحق، ولذلك فإنّ حركة الشمس والقمر والنجوم لا تعدّ معجزة رغم عجز الانسان عنها لأنّها فعل الله عز وجل دون وساطة، ولم يذكرها مدعي النبوّة كدليل على ادعائه، بل كانت قائمة قبل ذلك.

٢- **مطابقة الدعوى:** على مدّعي النبوة اثبات ما يدعيه ، فان ادعى شفاء الاعمى فلا بد له من تحقيق هذا الامر، والا لا يعدّ الامر مطابقة لدعواه فيما لو حدث العكس.

٣- **عجز الآخرين:** لا بد من عجز الآخرين عن الاتيان بمثلها، فان كان بالامكان الاتيان بالمعجزة عن طريق الاخرين او عن طريق لا يعجز عنه الآخرون فهي ليست بمعجزة، ومن هنا يمكن التفريق بين المعجزة والسحر بنقطتين:

أ- المعجزة لا يمكن تعليمها وتعلّمها عن طريق البشر خلافا للسحر والعلوم الغريبة التي تعدّ أموراً اكتسابيّة يمكن تعلّمها.

ب- المعجزات لا تتقيّد بأمر خاصّ خلافاً للسحر الذي يتحدّد بما تعلّمه الساحر من أعمال؛ ولذلك لا يمكن أن يلبي كل رغبة، أما المعجزة فهي تتعلّق بجميع الامور إلا المجالات العقليّة، كمعجزة صالح الذي اخرج الناقة من صخور الجبال.

٤- **اقترانها بالتحدّي:** التحدي يعني طلب المبارزة، فعلى مدّعي النبوّة في المعجزات أن يأتي بأمر خارق للعادة ليثبت عجز الآخرين، ويثبت دعوته، كما هو الحال في تحدي نبي الاسلام في مسألة القرآن، يقول تعالى: ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله. وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ﴾(البقرة/ ٢٣).

ومن هنا فإنّ العمل الذي لا يكون مصحوباً بالتحدي لا يعتبر معجزة وان كان عديم النظير، وعجز الآخرون عن الاتيان بمثله، بل يطلق عليه (كرامات) مثل كرامات المعصومين، الاولياء الصالحين والمتقين، ومن هذا المنطلق فإنّ المعجزة عبارة عن: **كلّ عمل خارق للعادة مقروناً بالتحدي من قبل مدعي النبوة ومطابقا لارادة ما يريده الرسل، ويسعون الى تحقيقه في الاوقات اللازمة والضرورية.**

- أقسام المعجزة:

يمكن تقسيم المعجزات التي تجري على يد الانبياء الى قسمين رئيسيين، هما:

١- **المعجزة الحسيّة:** وهي المعجزة التي يمكن أن تدركها حواسّ الانسان الخارجية، كالبصر، فانقلاب العصا حية تسعى لموسى(ع) ، وطوفان نوح (ع) ، ونار ابراهيم (ع)، وعصا موسى (ع)، وما شابه كلّها أمور خارقة للعادة مدركة لحواسّ الانسان.

٢- **المعجزة العقليّة:** وهي المعجزة التي تدرك من قبل العقل الانساني وتتعدّى ادراك الحواسّ المادّي، وذلك كلاتيان بحقائق العلوم من غير تعلّم، والاخبار عن الغيب تعريضا وتصريحاً.

قال السيوطي عن المعجزة: ((وهي اما حسيّة وإمّا عقليّة، واكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسيّة لبلادتهم وقلة بصيرتهم واكثر معجزات هذه الامة عقلية لفرط ذكائهم وكمال افهامهم، ولان هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر)).

فالحسي ما يشترك في ادراكه العامة والخاصة، وهو اوقع عند طبقات العامة، وآخذ بمجامع قلوبهم واسرع لادراكهم.

واما العقلي فيختص بادراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة والافهام الثاقبة الذين يغنيهم ادراك الحقّ.

- القرآن معجزة الاسلام الخالدة:

كان الانبياء في الاديان السابقة يأتون بمعاجز تتناسب مع زمانهم، كما هو الحال في معجزة ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ولكن الامر المسلّم به هو أن معجزات هؤلاء الانبياء كانت تختص بزمانهم ولا تتعدّى الى أزمنة أخرى، وأمّا معجزة دين الاسلام الذي بدأ ببعثة النبيّ فقد كانت من نوع آخر، فمعجزته خالدة منذ أن بدأت الرسالة وحتى القيامة، وتلك المعجزة لم تكن الا معجزة القرآن الكريم.

ومثلما لاحظنا سابقاً فإنّ المعجزات السابقة كانت معجزات حسيّة، بينما القرآن الكريم يعدّ من المعجزات العقلية غير المرتبطة بعالم الحسّ وخواصّ المادّة، فقد ارتبطت هذه المعجزة بالعلم والمعرفة الامر الذي اعطاها صفة الديمومة والخلود وعدم محدوديتها من جهة الزمان والمكان.

اما علة خلود القرآن فتكمن في خلود رسالة النبي (ص) في جميع الازمنة والامكنة ولجميع البشر، فنبي الاسلام محمد هو خاتم الانبياء، مبعوث لهداية البشر الى يوم القيامة، ودينه هو الاسلام، وكتابه هو القرآن، ورغم ان للرسول معجزات أخرى كشقّ القمر، والمعراج، غير ان اكبر معجزاته هو القرآن الكريم، الذي يتناسب مع جميع الازمنة.

فالقرآن الكريم كتاب يتضمّن مطالب سامية لا تختص بزمان ومكان خاص، كما يقول الله عز وجلّ : (انه لقول فصل. وما هو بالهزل)، ومعارفه تتخطى حدود الزمان والمكان، وهي دليل حقانيته النبي ولا تختص بمجموعة خاصة من البشر.

ورغم انّ الشعر في زمن الرسول بلغ القمة ، مع ذلك تحدى القرآن المخاطبين في عصره بأن يأتوا بمثله ان استطاعوا، بيد ان الاعجاز البياني هو احد جوانب اعجاز هذا الكتاب العظيم، ومن الطبيعي ان يتناسب القرآن مع عصر النزول، وهذه احدى السنن الالهية فان المعجزة لا بد وان تتناسب مع عصرها، فاذا كان السحر قد وصل الذروة في عصر موسى (ع) فأعطى الله سبحانه وتعالى نبيّه العصا واليد البيضاء، وفي عصر عيسى (ع) وصل الطب اليوناني الى اوج تطوّره، فكان الاطباء يقومون بأعمال غير عادية فوهب الله تعالى نبيّه عيسى معجزة شفاء المرضى واحياء الموتى، اما الفصاحة

والبلاغة وفنون الادب والخطابة فقد كانت هي الفنون المتداولة في عصر الرسول، وبلغت مرتبة عالية، فكانت تعقد مسابقات الخطابة والشعر في سوق عكاظ، ومن الشواهد المعلّقات السبع وكتابتها بماء الذهب وتعليقها على استار الكعبة، فسلّم الجميع للقرآن بإعجاز البياني المتناسب مع ما شاع في عصر نزوله.

أضف الى ذلك فإن القرآن الكريم كتاب لا يختص بزمان معين فقد جاء لهداية البشر وتربيتهم، فهو يتضمن افضل الارشادات لتربية الانسان، بل يمكن القول ان القرآن هو كتاب (بناء الانسان) مع الاخذ بنظر الاعتبار الهدف الذي نزّل من أجله القرآن، وهو تربية البشرية ورشدها ولذلك لا بد من ان يتضمن جميع الاشياء، كما قال تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(النحل/ ٨٩).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا كانت المعجزات الخاصّة بالانبياء السابقين حسيّة بينما كانت معجزة الاسلام وهي معجزة القرآن الكريم عقليّة؟

والجواب عن هذا السؤال يرتبط ارتباطا جوهريا بمسألة تطوّر الانسان وتكامله من الناحية الفكريّة والاسس الايدلوجية التي يفسر بها حقيقة العالم الذي يعيش فيه، فقد كان الانسان في العصور الاولى من حياته الفكرية مأنوسا بالحسّ والتجربة الماديّة وبذلك كان يفسر ما يدور حوله من ظواهر الكون والحياة.

الا ان الامر لم يبق على حاله بل وصل الانسان عبر مسيرته الطويلة والشاقّة الى مستويات راقية من التفكير والتعقل، الامر الذي يقتضي أن تكون المعجزة التي تثبت رسالة السماء، وتستند عليها النبوّة الالهية ملائمة لهذا المستوى من التفكير والتعقّل، وهذا ما تبّنته الرسالة السماوية الخاتمة ومعجزتها المتمثلة بالقرآن الكريم.

- اعجاز القرآن ومراحل التحدي:

إنّ السير الزمانيّ لآيات التحدي كالآتي:

أ) التحدي في مكّة:

- ﴿ أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾(الطور/ ٣٣، ٣٤).
- ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾(هود/ ١٣).
- ﴿ أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ﴾(يونس/ ٣٨).

ان تحدي القرآن للمشركين في مكة وقبل الهجرة الى المدينة كان على النحو التالي:

أولاً: تحدّاهم بأن يأتوا بمثل القرآن، أي بنفس المقدار الذي كان نازلا في ذلك الوقت، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة، فأول آية من آيات التحدي كانت في سورة الطور في الآية الرابعة والثلاثين، حيث كان المشركون يقولون إن القرآن هو كلام بشري منسوب كذبا الى الله سبحانه وتعالى فردّ عليهم القرآن قائلاً: ﴿ فليأتوا بحديث مثله﴾(الطور/ ١٣).

وفي المرحلة الثانية تحداهم بعشر سور وهي الآية الثالثة عشرة ، قال تعالى، ﴿ فليأتوا بعشر سور مثله ﴾(هود/ ١٣)، وفي المرحلة الثالثة كان التحدي بسورة واحدة، وهي الآية الثامنة والثلاثون من سورة يونس، بقوله تعالى: ﴿ فأتوا بسورة مثله...﴾ (البقرة/٢٣).

وفي جميع الآيات النازلة في مكة استعمل القرآن تعبيراً كان يستعمله المشركون، مثل: (تقوّله، افتراه) كما استعمل التعبير (إن كنتم صادقين) وهو إشارة الى عناد هؤلاء المشركين ولجاجتهم.

ب- التحدي في المدينة:

- ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين ﴾(البقرة/ ٢٣، ٢٤).

- ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾(الاسراء/ ٨٨).

ومع مرور اكثر من ثلاث عشرة سنة على نزول القرآن وهجرة النبي الى يثرب استمر سير التحدي في مرحلتين، الاولى التحدي في سورة واحدة، وهو في الواقع استمرار لآخر تحدي في مكة، يقول تعالى في سورة البقرة: (فأتوا بسورة من مثله..) في هذه الآية يخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين إذا كان الشكّ والريب لا يزال يخيّم على صدوركم بعد انتشار الاسلام، فاتوا بسورة من مثل القرآن اذا كنتم صادقين.

وفي تتمّة الآية ينبؤهم القرآن بأنّ العاقبة السيئة والهلاك سوف يكون من نصيبهم في نهاية المطاف.

ونتيجة لعجز المخالفين وعدم اسلامهم في المدينة، اوعدهم بنار جهنم بعد اتمام الحجة عليهم واتضاح الحقائق، ورد في الايات المدنية تعبير: (ولن تفعلوا) وهذا التعبير يريد أن يبيّن أنّ مشركي مكّة اذا كانوا جاهلين يعجزهم بعجزهم قبل هجرة النبي فانّهم قد اكتشفوا هذا العجز عندما انتقل الرسول الى المدينة، وبعد مرور عدة سنوات من انتشار الاسلام واتضاح عظمة القرآن.

اما المرحلة الثانية للتحدي في المدينة، فهو التحدي بمثل القرآن، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الاسراء : (قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون..)، والشرط في الآية وقع ماضيا، وبيان عجز المخالفين منذ بدء نزول القرآن، وفي مقام بيان استحالة الاتيان بمثل القرآن.

- خصائص آيات التحدّي:

يمكن الوقوف على خصائص آيات التحدّي المذكورة سابقاً من خلال دراسة تلك الآيات، والايات المشابهة لها، وتتبع سير نزولها، وهي:

١- **السير التدريجي:** تتميز آيات التحدي من اعلى مستوياتها الى ادناها بثلاث مراحل، والظاهر ان التحدي الاول كان بالاتيان بمثل القرآن، ثم التحدي بعشر سور ، ثم بسورة واحدة، ما يشير الى عظمة القرآن واستحالة الاتيان بمثله.

٢- **شقاء المخالفين:** ان قبول القرآن وعدم قبوله يرتبط بمسألة سعادتهم وشقائهم، فإذا أصرّوا على عنادهم ولجاجهم ولم يسلّموا تجاه دعوة الحقّ، فإنّ الشقاء سوف يكون من نصيبهم، والعاقبة السيئة في انتظارهم، اما اذا قبلوا دعوة الحق، وآمنوا بذلك، فانهم سوف يختارون طريق السعادة.

٣- **الاستفادة من جميع الامكانيات:** يخاطب الله سبحانه وتعالى البشر بأنّه يمكنكم الاستفادة من جميع الوسائل والقوى، وهذه المسائل تظهر ان جميع البشر عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن وان كان بعضهم لبعض ظهيرا في هذه المسألة.

٤- **التنبّؤ بعدم القدرة على ذلك والى الابد:** يخبرنا القرآن بعجز البشر عن الاتيان بمثل القرآن ، ما يشير الى القرآن واعجازه، فالله سبحانه وتعالى يتنبأ بأنه لا يمكن لاي بشر وفي اي وقت من الاوقات الاتيان بمثل القرآن، فالآية الثامنة والثلاثون من سورة الاسراء تتضمّن خبرا غيبيا عن المستقبل.

٥- **كذب المخالفين:** يشير الله سبحانه وتعالى الى كذب المخالفين في آيات عدّة وذلك من خلال عبارة (ان كنتم صادقين)، وأن مخالفي النبي ليسوا من اهل الصدق وانه قد اتضح لهؤلاء ان القرآن كلام الهي، وانهم في الحقيقة يطلبون مصالحهم الدنيوية من خلال الشرك، ومن لم يكن كاذبا سوف يؤمن بدعوة النبي (ص).

٦- **إقرار المخالفين بإلهيّة القرآن:** يعترف مخالفو القرآن ضمنيّاً بالمصدر الالهي للوحي، وان هذا الكلام والمعارف السامية لا يمكن أن تصدر من انسان؛ لأنّهم كانوا يعلمون بتاريخ وماضي النبي انه كان صادقا امينا وكان يعيش فيما بينهم، وقبل ادعاء الرسالة كان انسانا عاديا.

٧- **شهادة العقل على اعجاز القرآن:** يحكم العقلاء في ذلك الزمان وكل زمان بأنّ القرآن قد نزل من عند الله سبحانه وتعالى، لانه وبعد مرور سنوات من نزوله في مكة والمدينة لم يستطع أحد أن يأتي بمثله، وهذا الامر مستمر حتى هذه اللحظة، ولذلك فالعقل يحكم بأنّ القرآن هو من عند الله تعالى.

٨- **الحكم المتعجّل للمخالفين:** حكم بعض المخالفين على القرآن حكما خاطئا وغير صحيح، مع أن القرآن يقول ان هؤلاء لو تدبروا آياته فسوف يتوصلون الى أنّه من عند الله تعالى، والا لوجدوا فيه اختلافا لان سبب الاختلاف يكمن في توسع مطالبه وتنوعها، وطول زمان التدوين مع ان القرآن في جميع تلك الصفات بعيدا عن الاختلاف والتضاد.

- مصادر المحاضرة:

- إعجاز القرآن: د. السيد رضا مؤدب، تعريب قاسم البيضاني.

- إعجاز القرآن الكريم عبر التاريخ: د. عيسى بلاطة.

- الاعجاز بين النظرية والتطبيق: محاضرات السيد كمال الحيدري: محمود نعمة الجياشي.

- نظريات الاعجاز القرآني: د. أحمد رحماني.

- آثار السابقين في الإعجاز:

غالباً ما يتناول علماء الإسلام إعجاز القرآن في كتب التفاسير في ذيل الآيات (٨٨) من سورة الاسراء، من سورة البقرة، وآيات التحدي، أمّا بعض المفسّرين فقد تناولوا بحث الاعجاز في مقدمة تفاسيرهم، مثل الراغب الأصفهاني، الفخر الرازي، الطبرسي، الزمخشري، البلاغي، العلامة الطباطبائي، ولكن هناك من دون كتباً مستقلّة في هذا البحث، أو قام بتخصيص مبحثاً مستقلاً في كتبه، وفيما يلي بعض من دوّن في هذا الموضوع كتاباً مستقلاً طبقاً لتأريخ التدوين:

١- نظم القرآن: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ).

٢- إعجاز القرآن البياني، أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ).

٣- النكت في إعجاز القرآن: علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ).

٤- بيان إعجاز القرآن: أبو سليمان حمد بن إبراهيم الخطّابيّ (ت ٣٨٦هـ).

٥- اعجاز القرآن: ابو بكر محمد بن طيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).

٦- اعجاز القرآن والكلام في وجوهه: محمد بن النعمان، الشيخ المفيد (ت٤٠٣هـ).

٧- الصرفة في اعجاز القرآن: السيّد المرتضى (ت٤٣٦هـ).

٨- اعجاز القرآن: حسين أحمد النيشابوري (ت٤٦٥هـ).

٩- اعجاز القرآن الكبير، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ).

١٠- التنبيه على اعجاز القرآن: محمد بن أبي القاسم الخوارزمي (ت ٥٦٢هـ).

١١- اعجاز القرآن: ابو الحسن علي بن زيد الرازي (ت٦٠٤هـ).

١٢- نهاية الايجاز في دراية الاعجاز: الفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ).

١٣- ثبوت النبوة والمعجزات: تقي الدين ابو العباس(ت٧٢٨هـ).

١٤- الشهاب المبين في اعجاز القرآن: ابو القاسم محمد تقي (ت١٣٣٣هـ).

١٥- اعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي.

١٦- المعجزة الخالدة: هبة الدين الشهرستاني.

١٧- المعجزة الكبرى في القرآن: محمد أبو زهرة.

١٨- الاعجاز العددي في القرآن: عبد الرزاق نوفل.

١٩- الاعجاز البياني: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء).

٢٠- الاعجاز في دراسات السابقين: عبد الكريم الخطيب.

٢١- اعجاز القرآن: محمد حسين الطباطبائي.

٢٢- اعجاز القرآن بين الاشاعرة والمعتزلة: منير سلطان.

- نظريّات الإعجاز القرآنيّ:

على الرغم من تسليم العلماء كافّة أنّ القرآن الكريم يمثّل معجزة إلهيّة، يلحظ أنّ البحث في مزيّة النصّ القرآنيّ التي تجعله خارقاً العادة البشريّة، دالاً على النبوّة كان سبباً رئيساً للبحث عن الوجوه التي تعلّل كيفيّة هذا الإعجاز؛ لذلك شكّلت مسألة تحديد وجه الإعجاز هدفاً مهمّاً شغل مؤلّفي الكتب التي تحدّثت عن هذا الموضوع، وانعكس الأمر على مؤلّفاتهم ليشغل الحديث عن هذه المسألة حيّزاً كبيراً منها، إيماناً منهم بأنّ معرفة وجوه إعجاز القرآن تمثّل **وسائل ... لفهم شريعة الله تعالى والوحدانيّة به**، فتتكشّف لهم من خلال هذه المعرفة قيم النصّ القرآنيّ وفضائله وجماله وصياغته من جهة، ومن جهة أخرى هي وسيلة من وسائل الدفاع عن القرآن ضدّ مَنْ ركّزوا على إنكار إعجازه، لاسيّما ممّن حمل على الإسلام والعرب جميعاً من الزنادقة والشعوبيّين.

ومع أنّ الدافع في محاولة تعليل كيفيّة الإعجاز كان متوافراً في هذه الكتب جميعاً إلا أنّ مسألة **الوقوف على الجهة التي كان منها الإعجاز القرآنيّ، أمر لم تلتقِ عنده الآراء، ولم يكن محل اتفاق بين الباحثين والناظرين في وجوه الإعجاز، في كلّ زمان ومكان، فهناك أكثر من رأي، وأكثر من مذهب في الجهة أو الجهات التي كان بها القرآن معجزاً مفحماً**، فترتّب على ذلك أمران:

الأوّل: تعدّد صور إثبات هذا الإعجاز من خلال تعدّد آليّات التعامل مع القضية فيما بين هذه الكتب، فشكّل كلّ منها حالة مستقلّة بنفسها ولكنها مكمّلة لما سبقها.

الثاني: امتزاج الحديث عن هذه الوجوه بآراء كلاميّة تؤيّد صحّة هذا الوجه أو ذاك لإثبات ما في القرآن من دلالات الإعجاز؛ لأنّ **الأسئلة المطروحة لا يمكن أن˚ تجد لها جواباً كافياً في المعالجة اللغويّة مهما بلغت من العمق.**

من هذا المنطلق ضمّت كتب الإعجاز أكثر من وجه لتفسير كيفيّته، مثل: البلاغة، والفصاحة، والنظم، واشتمال القرآن على الأخبار المستقبليّة، والصَرْفة، والتحدّي للكافّة، وأميّة الرسول، وغيرها.

ومع هذا التعدّد في الوجوه إلا أنّ الذي يظهر من دراسة وجوه الإعجاز عند القدماء أنّ الإعجاز البيانيّ **لم يكن قطّ موضع جدل أو خلاف، وإنّما كان الجدل بين الفرق الإسلاميّة، في اعتباره الوجه في الإعجاز، أو القول معه بوجوه أخرى. وقد تبدو شبهة خلاف فيه، في ضجيج جدلهم الكلاميّ، لكنّ الشبهة تنجلي في المآل، لمَنْ يمعن النظر في موقفهم من خلال الجدل المثار**؛ فالمعتزلة مثلاً ذكروا الصَرْفة ولكنّهم وجّهوا عنايتهم إلى الإعجاز البلاغيّ، فالقول بأحد الوجوه الإعجازيّة السابقة لا يعطّل النظر في إعجازه البيانيّ؛ ولذلك توجّه أغلب أصحاب كتب الإعجاز إلى تفسير إعجازه تفسيراً بيانيّاً ولكنّهم اختلفوا في طريقة المعالجة.

والحديث عن وجوه الإعجاز لا بدّ من أنْ يوصلنا إلى تفسير ماهيّتها، فهي لا تعدو مجرّد وسائل (معيّنة) أنشأها العلماء وقدّموها كلّ بحسب عصره وثقافته لتفسير إعجاز النصّ القرآنيّ، فإذا حدث وتخلّفت هذه الوجوه عن أداء مهمّتها في زمان لاحق فلا يكون مردّ هذا التخلف والقصور إلى كتاب الله تعالى، وإنّما التخلّف والقصور يقع في الوسيلة نفسها، فهي لا تشكّل حقائق دامغة مستمدّة من جوهر القرآن الكريم وإنْ كانت تعتمد على شواهد النصّ القرآنيّ.

إنّ البحث في الاعجاز القرآنيّ قد بدأ في فترة مبكرة جدّاً من عمر الثقافة الإسلاميّة، وقد كان السبب في ذلك واضحاً لارتباط المعجزة بالرسالة، وارتباطهما معاً بقضيّة الايمان، فلمّا اشتقرّ الايمان في النفوس انشغل العلماء بما هو أولى، كتدوين القرآن، وجمع الحديث الشريف، وتنظيم ابواب الفقه، حتى اذا استقرّ الامر ونشط البحث العلميّ في القرنين الثالث والرابع الهجريّين، طرح القضية من جديد لكن هذه المرّة ليس من باب التشكيك، وانما من باب البحث العلميّ النزيه؛ لذا تعدّدت وجهات النظر في أسباب الإعجاز وأسراره، فنسبه بعضهم إلى أسباب خارجة عن النصّ القرآنيّ، وأرجعه بعضهم الآخر إلى أسباب واقعة في ذات النصّ القرآنيّ، ولكنّهم في الحالتين لم يصوغوا نظريّة شاملة للإعجاز القرآنيّ، وهذه التفسيرات شملت العلماء من القدماء والمحدثين، وقد تعدّدت النظريّات التي قيلت في تفسير الإعجاز القرآنيّ، وهي كالآتي:

١- الصَرْفة.

٢- الإعجاز البلاغيّ.

٣- الإعجاز التشريعيّ.

٤- الإعجاز التاريخي.

٥- الإعجاز من خلال الاخبار بالغيب.

٦- الاعجاز العلميّ.

٧- تضافر الوجوه الإعجازيّة.

- نظريّة الصَرْفة:

وتعدّ هذه النظريّة من أقدم النظريّات الإعجازيّة.

القائلون بها:

وهي مقولة قال بها: أبو موسى الأشعري، النظّام، وبعض القدريّة، وذكرها الرمّاني في رسالته النكت، والشريف المرتضى، وأبو اسحق الاسفراييني، وابن حزم، وقال ابن عاشور ان القائلين بهذا القول هم طائفة قليلة.

النقد الذي وجّه للنظريّة:

لاقت هذه النظرية من النقد ما لم تلاقه نظريّة أخرى، ومن ردودو العلماء عنها:

– لو كانوا صرفوا على ما ادعاه– النظام– لم يكن من قبلهم من اهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدله به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الوصف، لانهم لم يتحدوا إليه، ولم تلزمهم حجته، فلمّا لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أنّ ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان.

– لو قلنا إنّ المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً وذلك خلاف الاجماع، وقد علم أنّ نفس القرآن هو المعجز؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه.

– ان القول بالصرفة لا يناسب صفة الاعجاز ومفهومه.

– القول بالصرفة يعني ان قدرات العرب في البلاغة والبيان قد تراجعت بعد نزول القرآن وهذا الامر لم يثبت به قول أو يصدق في واقعهم.

– انّ القول بالصرفة هو هروب من مواجهة قضية الاعجاز بالبحث العلمي الدقيق.

– انتقد بعض العلماء هذه النظرية انطلاقا من جذورها الفلسفية اليونانية، إذ مزج قائليها بين الفلسفة على كونها نظرا صرفيا، وبين الدين على كونه يقينا محضاً فكانت هذه النظريّة التي هي ليست من العلم بشيء.

- نظريّة الإعجاز البيانيّ:

مضمونها:

ان بعض التعابير أقوى طاقة من بعض، وقد عالجها القدماء في جانبين كبيرين منهما، هما: جانب البلاغة، والفصاحة، فالبلاغة ركّزت على الدلالة، والفصاحة ركّزت على القيمة الصوتية، وقد ادّى ذلك الى ظهور اتجاهين في الدراسة، احدهما، برز في نظرية النظم، وثانيهما ظهر فيما يمكن ان نسميه نظرية الفصاحة. وهذان الرأيان على الرغم من اختلافهما جعلت العلماء يبحثون الاعجاز في ثلاثة أطر، عرفت باسم علوم البلاغة، هي:

- علم البيان.

- علم المعاني.

- علم البديع.

لكثرة المؤلّفات التي كتبت في قضيّة الإعجاز البياني فإنّنا سنأخذ رسالة علي بن عيسى الرمّاني (ت٣٨٦هـ): (النكت في إعجاز القرآن) أنموذجاً على التأليف في الاعجاز البيانيّ لأنّها تمثّل أوّل رسالة منهجيّة تتحدّث عن هذه القضيّة، فضلاً عن أثرها في اللاحقين من العلماء واعتمادهم عليها في تآليفهم بشكل مباشر أو غير مباشر.

- منهجيّة رسالة الرمّانيّ: النكت في إعجاز القرآن:

بدأ الرمّانيّ رسالته على طريقة سار عليها قبله كثير من العلماء الأجلاء، إذ يفترضون أنّ سائلاً يسأل سؤالاً، وينهضون تجاه ذلك بالإجابة، وربّما يكون السائل قد تقدّم بسؤاله على وجه الحقيقة، على هذا الأساس يجيب الرمّانيّ عن السؤال الذي وُجّه إليه عن تحديد وجوه إعجاز القرآن ليكون بمثابة التمهيد الذي يفتح الطريق أمامه للحديث عن قضيّة الإعجاز، ((**سألت وفقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وأنا أجتهد في بلوغ محبتك**))(**النكت: ٧٥**)، وتوجّهه إلى طريقة العرض هذه شبيه بتوجّه المتكلّمين من سابقيه وطريقة عرضهم آراؤهم، إذ راموا من خلال إجاباتهم عن أسئلة مُفترضة من قبلهم، وضعوها إزاء القارئ – الحليف أو العدوّ– تحقيق عنصر الإفهام، وتثبيت الإجابة وتقريرها في ذهنه، فيتحقّق الهدف التعليميّ المقصود من وراء استعمال هذه الطريقة.

وقد تجسّدت قضيّة الإعجاز عند الرمّانيّ وبيان وجهه من خلال محورين متداخلين:

- تحديد وجوه الإعجاز عند سابقيه.

- تحديد وجه الإعجاز عنده.

وتعامل الرمّانيّ مع النصّ القرآنيّ مبنيّ على أنّه نصّ ثابت الصحّة والنسبة إلى الله **سبحانه وتعالى**، وعلى أنّ حامله هو الرسول الكريم **(صلّى الله عليه وآله وسلّم)**، ومهمّته في الرسالة هي الحديث عن إعجازه فقط من دون التركيز على قضايا كلاميّة ترد في معرض الدفاع عن النصّ القرآنيّ، وتنزيهه من الطعون التي وجّهت إليه من غير المسلمين ممّن شكّكوا في الوحي والقرآن، أو من المسلمين بسبب اختلاف توجّهاتهم إلى تحديد وجه الإعجاز، وهذه مسألة تُحمد له لأنّه كان وفيّاً بما وعد في مقدّمة رسالته من أنّه سيتحدّث عن قضيّة الإعجاز من دون تطويل بالحجاج العقليّ، ولتوضيح فكرة الرمّانيّ عن وجه الإعجاز القرآنيّ لا بدّ من أن نسبقها بتوضيح المحاور التي جسّدتها قضيّة الإعجاز.

- تحديد وجوه الإعجاز عند سابقي الرمّانيّ:

حدّد الرمّانيّ وجوه الإعجاز في رسالته بسبعة وجوه: **((ترك المعارضة مع توفّر الدواعي وشدّة الحاجة، والتحدّي للكافة، والصَرْفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة))(النكت: ٧٥)**، وبغضّ النظر عن الخلط الذي وقع فيه بين شروط المعجزة والوجوه فإنّه حاول من خلال هذا التعدّد أنْ يبيّن الوجوه الإعجازيّة البارزة عند سابقيه ممّن علّلوا سبب الإعجاز؛ وعنوان رسالته يكشف عن هذا التوجّه، فالنكتة في اللغة تعني النقطة البيضاء في سواد، أو سواد في بياض، وجمعه اللفظة يعني إشارته إلى أنّه سيعرض أبرز الآراء أو الوجوه الإعجازيّة لا كلّها، تعضدها دلالة (في) التي أفادت الظرفيّة.

فضلاً عن أنّ هذا التعدّد لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أنْ يشكّل حقيقة الإعجاز دفعة واحدة؛ لأنّ وجود بعضها ينافي بعضها الآخر فتنتفي عمليّة وجودها جميعاً أصلاً –مثلما سنلاحظ – وهو أمر يكشف عنه الرمّانيّ بشكل غير مباشر، فمثلاً أدّى القول بالإعجاز البيانيّ إلى التناقض مع مبدأ (الصَرْفة) التي تقرّر بأنّ الإتيان بمثل القرآن محال على البشر، لكن لا بسبب أنّ التراكيب الكلاميّة القرآنيّة في نفسها خارجة عن طاقة الإنسان وفائقة على القدرة البشريّة، بل لأنّ الله سبحانه يصرف الإنسان عن معارضتها والإتيان بمثلها بالإرادة الإلهيّة الحاكمة على إرادة الإنسان، وهذا الأمر يتنافى مع الإعجاز أصلاً .

والرمّانيّ بطبيعة الحال لا يمكن أنْ يجمع بين نظريّتين متباينتين أصلاً ؛ لأنّ القول بالصَرْفة يتنافى مع ما أقرّه أغلب العلماء بأنّ المعجزة خصّت القرآن عينه، فهي ليست بأمر خارج عنه، والقول بالصَرْفة يستدعي زوال الإعجاز بزوال التحدّي، وحينئذ يكون القرآن خالياً من الإعجاز، وهذا خرْق لإجماع المسلمين من أنّ القرآن يمثل معجزة محمّد **(صلّى الله عليه وآله وسلّم)** الباقية والخالدة على مرّ العصور، والرمّانيّ أحد أولئك العلماء الذين أقرّوا وقوع التحدّي للعرب والعجم، وأنّ المعجزة خصّت القرآن الكريم، وأنّ العرب تركوا المعارضة لعجزهم عن الإتيان بمثله، وحدّ المعجز عنده مقدار السورة القصيرة، **((فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز، كما وقع التحدّي في قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾(البقرة/٢٣) فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن))(النكت: ٧٨)**.

ومن ثمّ فهو لم يعترف بالصَرْفة وجهاً للإعجاز، ولكنّه ذكره إلى جانب الوجوه الأخرى؛ لأنّ بعض العلماء من سابقيه أقرّه وجهاً له.

وأمّا قياس القرآن بكلّ معجزة، ((**فإنّه يظهر إعجازه من هذه الجهة، إذ كان سبيل فلق البحر، وقلب العصا حيّة، وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز، إذ خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة**))(**النكت: ٧٨**)، فالأمر خارج عن قدرتهم في المعجزات كلّها؛ لأنّ فلق البحر لم يكن بمقدورهم أصلاً، ولا قلب العصا حيّة والأمر كذلك مع القرآن إذ لم يمتلكوا هذه القدرات كي يصرفهم الله عنها، فالصَرْفة توقف العقول عن العمل من خلال عائق خارجيّ، وقضيّة الإعجاز أمر يتحقق الوصول إليه بوساطة العقول.

- **مصدر المحاضرة:** كتب إعجاز القرآن حتى نهاية القرن السادس الهجريّ، نقد وتقويم، أطروحة دكتوراه تقدّمت بها هناء عبد الرضا الربيعي إلى مجلس كلية التربية في جامعة البصرة، ٢٠٠٨م.

- تحديد وجه الإعجاز عند الرمّانيّ:

نظر الرمّانيّ إلى وجوه الإعجاز عند سابقيه فوجد أنّ الإعجاز البلاغيّ هو الوجه الذي يكاد يتفق عليه العلماء ممّن سبقوه أو عاصروه، جاء هذا الاتفاق بعد سلسلة نقاشات مستمرّة طوال القرنين الأوّل والثاني الهجريّين، فتابع رأي العلماء انطلاقاً ممّا يحققه هذا الوجه من استقرار فكرة الإعجاز القرآنيّ من دون التخبّط والتعارض مع بقيّة الوجوه فينفتح عليهم باب النقد ونسبة النقص؛ لعدم تحقّقها في القرآن كلّه، في مثل: الإخبار عن حوادث مضت، أو حوادث ستحدث، أو خروجها عن النصّ القرآنيّ وعدم تعلقها به في مثل الصَرْفة، فضلاً عن أنّ الإعجاز البيانيّ لا يتناقض إطلاقاً مع أي وجه من هذه الوجوه فيما لو افترضنا صحّتها جميعاً.

فالبلاغة القرآنيّة المعجزة – عند الرمّانيّ – مثّلت وجهة التحدّي التي أقرّها القرآن على سامعيه من أمّة العرب الذين بلغوا منزلة عالية من القدرة البيانيّة، ومعرفة بنظم الكلام فاقت مَنْ سبقها من الأمم، ومع ذلك وجد الإنسان العربيّ نفسه عاجزاً عن الإتيان ببلاغة مشابهة لبلاغة القرآن؛ لأنّها فاقت تصوراته وقدراته كلّها، فإذا كانت بلاغة القرآن قد أعجزت العرب وهم أصحاب بيان فهي تعجز العجم –على حدّ قول الرمّانيّ– لأنّهم لا بيان لهم في هذه اللغة – أي لغة القرآن– بعيداً عن لغتهم، ((**وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصّة كما أنّ ذلك معجز للكافّة**))(**النكت: ٧٦**)، وهم ((**... على البلاغة أقدر لما بيّنا من فطنتهم لما لا يفطن له المولدون من إقامة الإعراب بالطباع، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز**))(**النكت: ١١٣**).

أمّا سبب العجز فيعود إلى أنّ حدود علم العرب ومعرفتهم لا تمكنهم من الإحاطة بمعاني القرآن وبدلالات ألفاظه؛ ((**...لأنّه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة، فنصبه لها يوجب أنْ يكون قد دلّ عليها من كلّ وجه يصحّ أنْ**

يدلّ عليه، وليس كذلك سبيل غيره من المتكلّمين بتلك العبارة؛ لأنّه قد تذهب إليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجه ذلك عن أنْ يكون قد قصد بها الإبانة عمّا وضعت له في اللغة من غير أنْ يلحقه فساد في العبارة))(النكت: ١٠٣)، وهذا سرّ الإعجاز في اللفظ القرآنيّ – من وجهة نظره- فاللفظة دالّة على معناها من كل وجه يصحّ أنْ تدلّ عليه؛ لأنّ الله **سبحانه وتعالى** عالم بكلّ شيء، لا تخفى عليه خافية فإذا ما وضع لفظاً للدلالة على معنى فإنّه لا محالة دالّ على معناه على وجه اليقين، أمّا سواه من البشر فلا يخرج بدلالة الألفاظ على معانيها عن المواضعة في اللغة، فإذا لم يعرف معناها فإنّه قد يلجأ في تحديدها إلى قياسها بمثيلاتها وإيجاد المشابهة بينها وبين سواها من الألفاظ، وفي حدود معرفته تلك فإنّه قد يخرج بها إلى الظنّ والاحتماليّة ولا سيّما في تعامله مع تفسير ألفاظ القرآن الكريم.

وبذلك يكون علم الله **سبحانه** باللغة ومدياتها يفوق علم البشر بمراحل عديدة وهذا هو سبب الإعجاز، **((...وقد عمّ التحدّي به للجميع لرفع الإشكال، وجاء على جهة الإخبار بأنّه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز. فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة/٢٣)، ثم قال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾(البقرة/٢٤) فقطع بأنّهم لن يفعلوا. وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾(الإسراء/٨٨). وقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾(الطور/٣٤). ولمّا تعلّلوا بالعلم والمعاني التي فيه قال: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود/١٣). فقد قامت الحُجّة على العربيّ والعجميّ بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة))(النكت: ٩٦، ٩٧)،** وهذا القول يكشف عن أنّ العرب علّلوا سبب الإعجاز، وأنّه واقع في المعاني التي تجاوزت حدود معرفتهم؛ فتحدّاهم **سبحانه** بأنْ يأتوا بعشر سور مفتريات خاليات من المعنى، وآيات القرآن لم تكن مفتريات على الحقيقة، فكانت القدرة على الإتيان بمثل القرآن غير متحقّقة؛ لأنّه أمر فاق ما تعارفوه في لغتهم.

والرمّانيّ وإنْ تنبّه إلى سرّ الإعجاز في اللفظ القرآنيّ إلا أنّه لم يعطهِ تعليلاً صحيحاً يسلم به مقابل النقد، فأرجع مسألة الوقوف على معاني القرآن إلى البلاغة؛ لأنّه يرى أنّها الوسيلة الوحيدة التي من الممكن أنْ تتجاوز طرائق الأداء النمطيّة إلى الطرائق الفنيّة عالية الجماليّة، فتحدث التأثير المطلوب في النفس، ومن هذا المنطلق اختزل البلاغة القرآنيّة إلى عشرة أقسام فقط: (الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، والبيان)؛ ربّما لأنّه يرى أنّ هذه الأقسام قادرة على الكشف بدقّة عالية عن دلالة ألفاظ القرآن على معانيها، فالمشاكلة مثلاً إذا كانت سبيلاً إلى المعاني فهي بلاغة**(النكت: ٩٧)، ((وفواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة؛ لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ بها عليها))(النكت: ٩٨)**، وسجع الكهّان ومسيلمة الكذاب كان كلاماً غثّاً لأنّه تكلف المعاني من أجل السجع(ظ: النكت: ٩٨)، والتصريف **((... يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدلّ عليه))(النكت: ١٠١)**، ولا يبتعد الرمّانيّ للوصول إلى هذه المعاني عن أصل اللغة، فالتجانس البلاغيّ مثلاً : **((هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة))(النكت: ٩٩)**، والمبالغة: **((هي الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة))(النكت: ١٠٤).**

حاول الرمّانيّ من خلال تقسيم البلاغة على عشرة أقسام تقعيد البلاغة القرآنيّة من خلال مرحلتين:

أوّلاً : تفسير انسجام النصّ القرآنيّ لغويّاً من خلال السياق لإعادة قبوله بشكل أقرب إلى مستوى اللغة، ولاسيّما في تخريج المتن المجازي: الاستعارة (*).

ثانياً: تفسير النصّ القرآنيّ وظيفيّاً من خلال تفسير فاعليّة الصور منفصلة، وفي مقولات عامّة، ومقارنتها بالبلاغة القرآنيّة ليتوصّل بعدها إلى بيان مزيّة إضافيّة للبلاغة القرآنيّة تتفوّق بها على بلاغة الكلام. وهذه المرحلة تأتي بعد المرحلة السابقة.

مع ذلك فإنّه باختزاله البلاغة القرآنيّة إلى التقسيمات العشرة السابقة ومحاولته تقعيدها لم يبيّن سبب اختياره هذه التقسيمات أو علاقتها بالإعجاز، أو كيفيّة دلالتها عليه، فإذا كان غرضه توضيح المعنى القرآنيّ فقط يكون قد تجاهل مفردات بلاغيّة أخرى كان من الممكن لها أنْ تكشف عن المعنى بشكل أكثر وضوحاً، في مثل التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والكناية وغيرها من فنون البلاغة، ثم إنّه لم يبيّن لنا هل أنّ مفهوم هذه التقسيمات ينطبق على القرآن وحده، أو على الكلام وحده، أو عليهما معاً ؟ فترك الأمور عائمة بلا حسم، واكتفى بالتمييز بين مستويين في بعض هذه الوجوه: معجز، وغير معجز، وهذا أساس تفريقه بين الفواصل والأسجاع، فالظاهرة واحدة ولكنّ الفرق كامن في أسبقيّة المعنى في الفواصل، وتقدّم الأصوات في السجع.

والقول بالإعجاز البلاغيّ عند الرمّانيّ يواجه بإشكال آخر وهو أنّه أقرّ أنّ الإتيان بمثل القرآن أمر غير ممكن، ومعارضته غير ممكنة بسبب قصور العرب عن الوصول إلى القدرات المعروضة في القرآن، ولكنّه تعامل مع القرآن بالأدوات التي أثبتت عجزهم نفسها، فالأدوات التي استعملت في المعالجة أدوات بشريّة لا يمكن أنْ ترقى إلى حقيقة الإعجاز الذي وقع فعلاً وهي بطبيعة الحال غير قادرة على الكشف عنه.

وعليه فإنّ الرمّاني اختزل قضيّة الإعجاز مثلما اختزل وجه الإعجاز البلاغيّ، وشذبها من الآراء الكلاميّة فلم تتضمّن رسالته ردود مطاعنٍ وجّهت إلى القرآن، أو شبهات أثيرت حوله، واندفع مسرعاً في الحديث عن وجوه الإعجاز من دون تمهيد أو توجيه نقد إلى جهد مَنْ سبقه في هذا الميدان، وهذا أمر يفي بغرض الاختصار الذي أراده، فضلاً عن الحياديّة في طرح الموضوع، فلم تغلب عليه النزعة المذهبيّة في توجيه الآراء، ونقض ما خالف وجه الإعجاز الذي يحدّده، وإنّما اعترف بالوجوه كلّها واحترم قائليها، وهذا أمر يرفع من شأن رسالته قياساً إلى محاولات تعليل وجه الإعجاز في الكتب الأخرى.

---

*) يتمثّل المجاز عند الرمّانيّ بمصطلح الإستعارة فقط على وفق التقسيمات التي وضعها للبلاغة.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذله الرمّانيّ فهو لم يتوصّل إلى تحديد الوجه الذي يكشف عن حقيقة الإعجاز تحديداً دقيقاً، وإنْ كان مسّه مسّاً خفيفاً عندما تحدّث عن سرّ الإعجاز في اللفظ القرآنيّ، ولكنّه لم يتوسّع في الوقوف على هذه الملاحظة، ومحاولته تفسير الإعجاز بالبلاغة لم تتعدّ الاستعانة بالمصطلح البلاغيّ، وحكم الإعجاز فيها مبنيّ على التصوّر وهذا خطأ؛ إذ لا بدّ من نهاية منطقيّة يكون المعجز فيها هو نهاية الحسن، وليست البلاغة هي الحدّ الأعلى له، فالقواعد التي يفسّر بها الإعجاز إنّما هي مصطلحات مبنيّة على الافتراض من منطلق تعلّقها باللغة، فهي ليست قواعد علميّة ثابتة يمكن الاستناد إليها والاطمئنان الى صحّة تفسيرها له، وكانت النتيجة أنْ ربط البلاغة القرآنيّة بالأثر النفسيّ من جهة، وقصر أمر معرفتها على العرب فقط من جهة أخرى مع أنّ النصّ القرآنيّ صريح بأنّ (الإنس) و(الجنّ) يقفان على قدم المساواة مقابل التحدّي، وطلب المعارضة، ووقوع العجز، ولكنّه عندما تحدّث في رسالته عن الإعجاز لم يتحدّث إلا عن العرب وقضيّة عجزهم عن المعارضة، وكأنّ مسألة الإعجاز أمر خاصّ بهم، لا بل إنّه يشترط للوقوف على الإعجاز المعرفة بهذه البلاغة، فإذا قلنا إنّ هذه المعرفة يمكن أنْ تنطبق على العجم من خلال إدراكها بالتعلّم فما هو حال الجنّ وعلمنا قاصر عن إدراك كيفيّة عجزهم؟

– **مصدر المحاضرة:** كتب إعجاز القرآن حتى نهاية القرن السادس الهجريّ، نقد وتقويم، أطروحة دكتوراه تقدّمت بها هناء عبد الرضا الربيعي إلى مجلس كلية التربية في جامعة البصرة، ٢٠٠٨م.

– مفهوم البلاغة القرآنيّة عند الرمّانيّ:

بدأ الرمّانيّ حديثه عن (البلاغة) بتقسيمها على ثلاث طبقات قبل أن˚ يحدّد مفهومها؛ وكأنّه أراد التمهيد للحديث عن البلاغة المعجزة بتحديد أنواع البلاغة عامّة، ثمّ بيان مكانتها قياساً إلى سواها من بلاغة العرب التي ألفوها في كلامهم، ((**فأمّا البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس**))(**النكت: ٧٥**).

وهذا التقسيم لا يحدّد المقصود من الطبقات على وجه الحقيقة، فلا يُفهم منه إلا الطبقة العليا من البلاغة، وهي بلاغة القرآن، أمّا الطبقات الأخرى فغير واضحة للعيان؛ هذا الأمر دفع أحد الباحثين – وهو الدكتور محمد بركات حمدي أبو عليّ في كتابه (في إعجاز القرآن الكريم: ٥٥)– إلى القول إنّ المقصود من البلاغة الوسطى: بلاغة البلغاء، والمقصود من البلاغة الدنيا: كلام العامّة، وهو قول يتناقض مع وصف (البلاغة) الذي أطلقه الرمّانيّ، فكلام العامّة لا يوصف بالبلاغة، وهي بأيّة حال من الأحوال لا يمكن أن˚ تقترب من المستوى العاديّ للكلام، ((**وليست البلاغة إفهام المعنى لأنّه قد يفهم المعنى متكلّمان: أحدهما بليغ، والآخر عييّ، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنّه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره، ونافر متكلف**))(**النكت: ٧٥**)، فالكلام إما أن˚ يصدر عن شخص بليغ أو آخر عييّ، والكلام البليغ سيندرج حتماً من ضمن طبقة البلغاء؛ أمّا الكلام العيّ فسيندرج من ضمن طبقة كلام العامّة من الناس فلا ينطبق عليه وصف البليغ.

وذهب بعض الباحثين- (وهم: الدكتورة بنت الشاطئ ، والدكتور منير سلطان، والدكتور أحمد جمال العمريّ (ظ: الإعجاز البيانيّ للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٩١، ٩٢، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: ٧٢، المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآنيّ: ١١٤)- إلى القول إنّ الطبقة الوسطى والدنيا هي بلاغة البلغاء على حسب تفاوتهم في البلاغة – وهو ما نؤيده- لأنّ هذا التقسيم يوحي إلى أنّ هناك فصلاً بين ما هو حسن يقع في مرتبة عالية من الجودة وعدم التفاوت، وآخر يقع في مستوى أقلّ ويقع فيه التفاوت، فيستحيل هذا التقسيم في الحقيقة على قسمين:

- **بلاغة القرآن:** وهي صادرة عن الله **سبحانه وتعالى**، ولا يقع فيها تفاوت مطلقاً لأنّها بلاغة إلهيّة.

- **بلاغة بشريّة:** وهذه يقع فيها التفاوت؛ لاختلاف مشارب البشر الثقافيّة والنفسيّة، فتتدرّج مراتبها على هذا الأساس بين ما هو بليغ، وما هو أبلغ.

ويشعرنا هذا التقسيم بالفصل المطلق بين البلاغتين على وفق الاعتبارات التي ذكرناها، فالبلاغة القرآنيّة معجزة ليست للعرب فقط – على حدّ قول الرمّانيّ- بل للعرب والعجم، والقول إنّ البلاغة القرآنيّة أعجزت العرب أمر يمكن إصدار الحكم فيه على افتراض قدرة العرب البلاغيّة والبيانيّة، ولكنّ القول إنّ البلاغة القرآنيّة أعجزت العجم أمر لا يمكن جزمه – مثلما فعل الرمّانيّ- لأنّ الاحاطة بعجزهم لا يمكن أن˚ يصدر إلا من أصحاب اللغة نفسها، لا من سواهم ممّن لم يختبر لغاتهم، أو يعرف بلاغتها.

أمّا البلاغة البشريّة فهي معجزة للخاصّة فقط ، من أصحاب اللغة ذاتها.

يتحدّد مفهوم (البلاغة) عامّة عند الرمّانيّ بعد رفضه المفاهيم البلاغيّة السائدة عند سابقيه، بقوله: ((**وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنّه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ، والآخر عييّ. ولا البلاغة بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنّه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره ونافر متكلف**))(**النكت: ٧٥**)، ولم يكن قصده من هذا المفهوم الذي عرضه التوسّع في الردّ على سابقيه أو معاصريه لا سيّما أنّ غايته الإيجاز والاختصار في رسالته.

ثمّ عرض مفهومه عن البلاغة، فقال: ((**وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب، في أحسن صورة من اللفظ**))(**النكت: ٧٥**)، فألحّ في هذا المفهوم على ضرورة تلاحم الوظيفة التوصيليّة بالوظيفة الجماليّة للأداء؛ لأنّ البلاغة لا تمثل صورة الأداء النمطيّ أو الحقيقيّ فقط، وإنّما تتجاوزه إلى الأداء الفنّي الذي يؤدي قيماً جماليّة في اللغة؛ لذلك ركّز على تقسيم الظواهر عامّة على أساس نوعين من الأداء :

- أداء نمطيّ يؤدّي معنى الإفهام في الكلام.

- أداء غير نمطيّ (فنّي) يتمثل في (البلاغة) التي تعطي مجالاً أكبر للتأويل.

بعد أنْ قدّم الرمّانيّ طبقات البلاغة ومفهومها حاول أنْ يقعّد البلاغة القرآنيّة فاختزلها إلى عشرة أقسام: ((**الإيجاز، والتشبيه، والإستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان**))(**النكت: ٧٦**)، ومن المرجّح أنْ تكون هذه التقسيمات خاصّة ببلاغة القرآن؛ لأنّه يتحدّث في رسالته عن (النكت في إعجاز القرآن)، ووجه الإعجاز عنده يتمثّل في البلاغة، وايراده هذه التقسيمات جاء في معرض الحديث عن بلاغة القرآن وكونها في الطبقة العليا من طبقات البلاغة.

فضلاً عن أنّ (الفواصل) و(المبالغة) و(التضمين) على وفق ما ذكره هي أمور تخصّ النصّ القرآنيّ وحده من دون النصوص الأخرى المعاصرة له، وإدخال هذه الأبواب من ضمن البلاغة القرآنيّة أمر مقصود؛ لأنّ (الفاصلة) إنّما هي أمر يخصّ القرآن وحده فأراد من خلال هذا الباب بيان تميّز النصّ القرآنيّ بالفواصل من دون (السجع) الذي هو أمر يخصّ النثر، والقافية التي تخصّ الشعر، ومن خلال (المبالغة) اعترف بأنّ القرآن استوعب غرض المبالغة في الكلام من دون الأنواع الأخرى المبنيّة على الإفراط في الوهم إلى حدّ غير معقول، مثل: الغلوّ والإغراق ممّا اشتمل عليه الكلام، ومن خلال (التضمين) أشار إلى المعاني الدلاليّة الجديدة التي اشتمل عليها كلام الله **سبحانه وتعالى** وهي لم تكن مألوفة في كلام العرب أساساً.

وهذه الأقسام العشرة السابقة لم تكن جديدة في بابها، بل ورد بعضها في بحوث السابقين، في الدراسات القرآنيّة، أو في كتب البيان العربيّ، والدراسات اللغويّة والشعريّة، فـ(الاستعارة) و(التشبيه) و(الإيجاز) و(المبالغة) كلّها وردت بمصطلحاتها، و(الفواصل) و(التجنيس أو التجانس) وردت بألفاظها أو ألفاظ مغايرة، أمّا (التلاؤم) و(التصريف) و(التضمين) فهي أبواب جديدة أضافها الرمّانيّ إلى بحوث البلاغة القرآنيّة، وربّما وردت لفتات السابقين تشير إلى معاني هذه الأبواب، ولكن وضعها في أبواب مستقلّة ودراستها بعد التحديد الاصطلاحيّ يعدّ أمراً جديداً في موضعه. والرمّانيّ لم يكن غافلاً عمّا ذكر في بحوث السابقين، إذ تجاوزوا هذه الأقسام التي ذكرها بمراحل، إلا أنّه أراد إكمال ما بدأه **حين تدرّج من قضيّة الإعجاز عامّة إلى الإعجاز البلاغيّ، وتناول هذه الناحية الأخيرة ووضعها في أعلى مراتب البلاغة، ووصف بلاغة القرآن في هذه الدرجة بأنّها بلاغة معجزة لأنّها بلغت أقصى ما يمكن أن يصله التعبير باللسان العربيّ، فبلاغة البلغاء مهما بلغت ممكنة، لكن بلاغة القرآن معجزة وليست في مقدور أحد**، وللسائل بعد ذلك أنْ يتساءل: ما أقسام البلاغة المعجزة ؟ وهو يعرف مفردات بلاغة البلغاء، فكانت إجابة الرمّانيّ في مكانها، بل كانت التفاتة دقيقة منه إذ لم يجعل البلاغة القرآنيّة تشتمل على ألوان أخرى ذكرت من ضمن الحديث عن بلاغة البلغاء، طلباً للإيجاز والاختصار.

- **مصدر المحاضرة:** كتب إعجاز القرآن حتى نهاية القرن السادس الهجريّ، نقد وتقويم، أطروحة دكتوراه تقدّمت بها هناء عبد الرضا الربيعي إلى مجلس كلية التربية في جامعة البصرة، ٢٠٠٨م.

لقد قدّم الرمّانيّ في رسالته **((محاولة جليلة من المحاولات الرائدة في التصنيف البلاغيّ وتنسيق أبواب ومصطلحات فيه))**، وهذا فضل يحسب له على مستويات البلاغة كلّها، ولكنّه وهو يتحدّث عن البلاغة القرآنيّة لم يخرج بها عن مفهوم البلاغة وقواعدها التي عرفها العرب، فهو يقرّ التشابه المطلق بين النصّ القرآنيّ، ونصوص الكلام الأخرى المعاصرة له؛ لأنّه –على وفق اعتزاليّته– يرى أنّ النصّ القرآنيّ جاء من جنس كلام العرب؛ وقواعد بلاغتهم تنطبق عليه في جزئيّاتها كلّها، وبذلك تكون الرسالة بياناً لأثر القرآن في بلاغة الكلام، لا بيان ماهيّة البلاغة المعجزة، فهو لا يفصل بين البلاغة القرآنيّة، وبلاغة الكلام على مستوى التطبيق، وإن˚ أوحى إلى ذلك من خلال تقسيمه طبقات البلاغة، وكنّا ننتظر منه أن˚ يأتي بقواعد بلاغيّة تخصّ النصّ القرآنيّ ولكنّه لم يفعل بل استمدّ القواعد التي طبّقها على القرآن من القواعد البلاغيّة التي توصّل إليها العرب من كلامهم، هذه القواعد تنطبق على الشعر والنثر معاً، إلى جانب النصّ القرآنيّ، فكان أن˚ وقع في التناقض من حيث لم يشعر لأنّه فصل بين البلاغتين من جهة، وطابق بينهما من جهة أخرى ليجعل القواعد البلاغيّة شاملة لهما معاً.

– **مصدر المحاضرة:** كتب إعجاز القرآن حتى نهاية القرن السادس الهجريّ، نقد وتقويم، أطروحة دكتوراه تقدّمت بها هناء عبد الرضا الربيعي إلى مجلس كلية التربية في جامعة البصرة، ٢٠٠٨م.